السِّمَات العَامة

1. الذوق:

وهي أبرز سمة تجلب انتباه الدارس إذ أن معظم الأحكام النقدية كان يصدر فيها أصحابها عن ذوق إذ لم تكن عندهم قواعد نقديه نظريه يصدرون عنها في أحكامهم وكان الذوق هو الزاد الفني الوحيد للناقد ولا يتبادر الى الذهن أنه ذوق ساذج لا يتعدى تلك الملكة الفطرية بل هو ذوق فني تكون نتيجة احتفاله بالشعر الذي توافر على قيم جمالية وتقاليد فنية أسهمت في تقويه ملكة الإحساس بالجمال والانفعال والتأثر له.

ولا يعني انعدام التعليل في بعض الاحكام أنها ناتجه عن انفعال عابر أو تأثر ساذج بل هناك دواعٍ الِفها الحس العربي فإذا ما ظفر بها في الشعر تأثر بها وعبر عن هذ ا بحكم نقدي دون إن يعين أسباب هذا التأثر أو الاعجاب لأنه يدرك أن مظاهر الجمال متعارف عليها بين الجميع (*ومن يدري؟ فلعل سكوت هؤلاء النقاد عن تعليل أحكامهم كان ناشئا عن إيثارهم للإيجاز في مثل هذه المواقف ولعله كان ناشئا من أنهم كانوا يتوجهون بأحكامهم النقدية إلى قوم يتكلمون العربية مثلهم عن سليقه ويعرفون من بلاغتها ما يعرفون فلم يكن من حق الناقد أن يقف من الجمهور الأدبي المتحلق حوله موقف المعلم الذي يفسر ويعلل* [1]).

ويعتبر الذوق أُولى المراحل في العملية النقدية، ومواجهه النص بالأدوات الفنية التجريدية لا يكفي للكشف عن جوهر العملية الإبداعية وإذًا فليس من سبيل الى إدراكها إلا عن طريق الذوق المدرب (ولا يمكن ان يغنينا عن التذُوق الشخصي أي تحليل كيماوي أو تقرير خبراء وكذلك الأمر في كافة الفنون فأي وصف للوحة الزيتية أو تمثال من الرّخام لا يمكن أن يغني عن الرؤية المباشرة وكذلك الأمر في الأدب فذوقنا الخاص هو أساس كلِ فهم له بحيث يبدو النقد الذوقي أمرا مشروعًا وهو بعدُ حقيقة واقعة حتى عند العلماء من النقاد المحدثين.

2. الجزئية:

والسِّمة الثانية التي طبعت معظم الأحكام النقدية في هذا العصر هي الجزئية إذ أن أغلب الآراء النقدية كانت جزئيه لا تتعدى معالجه لفظة أو صفة معينة كما رأينا في نقد طَرَفة للمسَّيَب بن علَس وقد يتناول الحكم النقدي معنى ضيقًا كما جاء في نقدهم للأعشى:

وثُبئتُ قيسًا ولم آتِه وقد زَعموا ساد أهلَ اليمنِ

فعِيب عليه أو عابه قيس نفسه فرده فقال:

وثُبئتُ قيسا ولم آتِه على نأيه ساد أهل اليمن (2)

الجزئية هنا تتمثل في "زعموا" فرأى أصحاب هذا الحكم أن الأعشى قد بنى مدحه على "الزعم" وهذا غير سليم في المدح إذ أن الزعم قد يحتمل الكذب وكذلك دعوا الأعشى أن يعتمد في مدح صاحبه على ما يعلم أو على ما خبره من ممدوحه وليس على ما يسمع أو لزَعم غيره.

وقد تمثلت الجزئية في كل الاحكام النقدية التي مرت علينا سابقا ولكنها َحكام جزئية صادقة كما نود أن نشير أن هذه الأحكام لم تُلتَزم فيها الرَّوِية ولم تَتحد بزمان إذ نجد النّاقد قد يصدر حكمه كلما صادفه موقف اِنفعل به وأبدى رأيه فيه كما إنها لم تنحصر في مكان معين بل تقال في كل مكان في الأسواق أو في مجالس الملوك والأشراف أو في البيوت بحيث يمكن القول إن التلقائية هي التي صنعت هذه الأحكام وكلما صادف الناقد موقفا أثر فيه أو انفعل به دفعه الى إبداء الرأي استحسانا أو استهجانا.

المقاييس النقدية:

في بداية الحديث نود أن نشير إلى ملاحظه مهمة وهي أن هذه المقاييس التي سنتحدث عنها هي في الواقع ليست قواعد نقدية نظرية شرّعها النقاد في العصر الجاهلي وإنّما هي معايير مستمدة

من الأحكام التي تفوَّه بها النقاد في ذلك العصر فقد حاولنا ان نجد البعد او المرمى الذي يهدف اليه الحكم وبعد استقراء لهذه الأحكام وجدنا أنها لا تخرج عن المقاييس التالية:

1. الإيجاز:

أسهم في تكوين هذا المقياس النقدي الطبيعة النفسية للإنسان العربي مثلما أوضح ذلك الدكتور: نبيل نوفل بقوله: «*يبدو أن ظروف تلقي الشعر وسماعه بالإضافة الى التكوين النفسي للإنسان الذي عاش في شبه جزيرة العرب في الجاهلية وما تميز به من حِدّةِ الطبع وسرعة الانفعال كل ذلك جعله لا يحتمل استيعاب القصائد الطوال ولو صبر على سماعها فإنما يفضّل أن يختار بيتا أو بيتين يُحس فيها بتركيز الشحنة العاطفية فيكتفي بها عن سائر القصيدة* [3]».

ولذلك كان الاتجاه العام عند النقاد هو تفضيل الإيجاز فيعدونه قمة الجودة في الشعر وهذا ما رأيناه في احتفال القبائل العربية ببعض الأبيات ووصفها بأسماط الدهر وراحت هذه الأبيات فأصبحت مضرب الأمثال، وهذا ما دفع الى البحث عن أغزل بيت وأمدَح بيت وقد دفعت نزعة الإيجار الشعراء إلى اختيار الألفاظ وانتقاء المعاني وإحكام بناء الصورة وهذا الحرص الشديد في الانتقاء من أجل أن يكون البيت الواحد مستقلا عن الأبيات الأخرى في معناه وصياغته؛ إذ ليس من المستحسن أن يكون معنى البيت الأول متعلقا بمعنى البيت الموالي له وإذا فعل الشّاعر ذلك يُعد عجزا منه ولهذا نلاحظ استقلال الأبيات في القصيدة الجاهلية وهذا يتماشى مع نزعة الإيجاز التي يُحبذها الجاهليُّ ومن أمثله الشُعراء الذين عرف عنهم التركيز زهير بن أبي سُلمى فقد كان يعيد النظر في قصائده حينًا بعد حينٍ على وجه التنقيحِ والتثقيفِ وهذا الاجتهاد من زهير في تركيز معانيه جعل أبياته يَنتقيها الجمهور وتُصبح مَضربا للأمثال و خاصةً في شعره الحكمِ.

وقد علل البهبيتي لنزعة الإيجاز فقال: «*وشخصية الشاعر العربي ومزاجه يميلان إلى ذلك كل الميل فالشاعر يكتفي بالبيت عن القصيدة وبالعبارة القصيرة عن البيت وباللّفظة إن وَفّت المعنى*

عن العبارة.... وكانوا يرون أن قِصر العبارة مع دلالتها على المعنى الغزير كفيل بسيرورتها وجريانها على الألسن وحفظها على مرّ الأزمان ولأنها بهذا الاختصار تكون ألصَق بالذّهن لسهولة حملها على الذاكرة (4)».

2. المثالية:

ونعني بها الجمال المثالي الذي تنزع إليه النَفس العربية في كل صياغة شعريه وبمقتضى هذه النزعة الجمالية يلجأ الشاعر الى تمثل الصورة المثلى للشيء ويصبغها عليه يتناول الأشياء من الواقع ثم يسمو بها الى أعلى درجات الجمال فهمُّ الشّاعر هو التغني بما هو جميل من كلِ شيءٍ وهذا ما نراه في جميع أغراض الشعر فإذا ما تعرض الشاعر إلى الحديث حبيبته فهو لا يصورها كما هي وإنما يصورها كما هي مُتخيلة في ذهنه فلنَنظر كيف صوَّر الشاعر عمرو بن قميئة حَبيبَته في هذه المقطوعة:

وفِيهن خَولة زَينُ النِســـــاء زَانت على النّاس طُرًا جَمــالا

لهَا عَينُ حَوراء في روضـــة وتَقرُو مع النَّبت أَرطَى طِـوالا

وتُجري السّواك على بـــارد يُخال السيالَ وليس السَّيـــالا

كأن المُدام بُعيده المَنام علَتها وتَسقيك عَذبـــــــا زُلالا

كأن الذَّوائبَ في فَرعـــــها حِبال تُوصَّل فيها حِبـــــالا

ووَجه يَحار له النَّاظـــرون يَخالونهم قد أَلِهوا هـــــلالا

فالشاعر هنا لا يصور حبيبته الخاصة ولكن يصور حبيبته الحلم حلم الفنان الجاهلي فهو إذًا يصور المرأة المثال وهذه الصورة النموذجية للمرأة تتكرر كثيرا في الشعر الجاهلي وكذلك إذا ما تعرَّض الشّاعر لوصف النّاقة فهو يُصبغ عليها كل مظاهر القوة والنشاط والجِد.... حتى تُصبح مثالا في

كل ذلك وقد رأينا في وصف المُثقَّب العَبدي للناقة كيف أزال عجمتها فأنطقها وجعلها تدخل معه في حوار بعد أن وصف شدّتها وقدرتها على تحمل الأخطار والمشاق فهذه الصّورة التي رسمها المُثقِّب العبدي لناقته ليست صورة واقعية وإنما هي صورة ابتدعها خيال الشّاعر وحاول أن يرفع لها ناقته، ونجد مثل هذا في قصائد المدح فالشاعر لا يمدح ممدوحه بصفاته الحقيقية وإنما يرفعه الى صورة نموذجية يبدعها خياله فالممدوح في الشعر الجاهلي ليست له مميزات خاصه وإنما هناك صورة نموذجية تشمل كل ممدوح، فمن النماذج الشعرية يتضح لنا أن النَّزعة المثالية قد اتخذها النقاد معيارا للجودة الشعرية وعابوا كلَّ من لم يهذب الواقع كما رأينا في حكم أم جُندب فالمُفاضلة تمت تَماشيا مع الذَّوق العام الذي ينشد الكمال في كل شيء.

3. المبالغة:

وهو أن يستعين الشّاعر بكل الوسائل الفنية لتجسيد المعنى الذي يريد التعبير عنه، وهذا ما أشار إليه النابغة عندما نقد بيتي حسان بن ثابت فالنابغة في حكمه يطلب من حسان أن يبالغ في تجسيد الأمور وألّا يقتصر على الوصف العادي ما دام امامه امكانيات فنيه للمبالغة. فنزعة المبالغة هي التي تقف وراء هذا الحكم وغيره وبهذا غدت المبالغة مطلب كل من الشاعر والناقد.

1. الدكتور عبد العزيز عتيق: تاريخ النقد عند العرب ـ دار النهضة العربية ـ 1974 ـ ص37.
2. الدكتور محمد منظور: النقد المنهجي عند العرب ـ دار النهضة مصر ـ ص16.
3. المرزوباني: الموشح ـ ص73.
4. الدكتور: نبيل نوفل: الأحكام النقدية وتطوره عند العرب. دار النهضة. مصر. ص146.
5. الدكتور البهبيتي: تاريخ الشعر العربي ـ ص78-79.
6. الاصمعي: الأصمعيات ـ ص17.